من أخلاق المرأة العربية
في
تائية الشنفرى

إعداد

دكتورة فاطمة المرسي جوهر

مدرس الأدب والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمدك اللهم الحمد الجزيل ، وأثني عليك الثناء الجميل ، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائك وأشرف رسلك نبينا محمد الصادق الوعد الأمين .

وبعد

فمما لا يقبل الشك أن المرأة فى الشعر العربي على مر عصوره تناولتها أقلام الباحثين فى أكثر من جانب، فماذا عسى هذه الصفحات أن تكشف جديداً ، وقد قتلها من قبلي بحثاً واستقصاءً وتحقيقاً ، ولكني على يقين من أن باب البحث لم يغلق تماماً فى وجه المرأة العربية سيما فى العصر الجاهلي فأردت أن ألج هذا الباب يحدوني إعجاب شديد ، وانبهار دائم بتلك الأخلاقيات السامية ، والمثاليات النادرة التي كان يتخلق بها العرب في المجتمع الجاهلي القح،مجتمع لا يعرف غير الفوضى والطبقية والظلم طريقا، ولا يؤمن بغير القوة والبطش و الثأر شريعة و منهاجاً، فإذا ما علمنا أن هناك أخلاقيات عظيمة و مثاليات متفردة كانت تتوافر بصورة أكثر عمقاً وإشراقا عند صعاليك العرب، وهم من هم من الخروج عن مجتمعاتهم ، واعوجاج سلوكهم، والوعورة والتشرد فى حياتهم كان ذلك حريا أن ننعم النظر فى أدبهم، ونقف خاشعين أمام صور حياتهم وهى تحكى قصص البطولة وما فيها من حرية وكرامة ، وقصص الكرم وما فيها من الإيثار والبذل والعطاء ، وقصص العفة وما فيها من صون للعرض وترفع عن الدنايا ، وكلها بهذه المثابة جديرة بالبحث والدرس ، بل الاقتداء والاحتذاء .

وإذا كان الصعلوك العربي على تلك الشاكلة فقد أتت زوجه تحكى صور العفة و البذل والإيثار مثله مما يجعلني أقف شاخصة البصر أمام صفاتها السامية وأخلاقها العالية استلهم منها ذلك الجمال المعنوي والروحي الخلاب الذي حاكاه خفرها ، وكرمها، وعفتها، وكمالها، ولم أجد خير ما يجسد صفات المرأة العربية المثال سوى" تائية " ذلك الصعلوك الجاهلي الشريد " الشنفرى " فإذا كنا قد عرفناه متفرداً فى دنيا الصعلكة والتشرد ، والخروج عن كل شكل فى الحياة فها نحن نجده متفرداً مبدعاً فى تصوير المرأة النموذج الذي يجب أن يحتذي ، ونربى عليه الناشئة ، ونلقيه فى وجدان بناتنا وعقولهم فى عصر لانت فيه الأخلاق ونعُم السلوك القويم ، وعزت القيم الأصيلة ، فسقطت المسئولية لأنه قد ناءت بحملها بنات هذا الجيل .

ذلك كان الهدف من البحث ، والأمل فى الدرس ، والله من وراء القصد ، وهو نعم المولى ونعم النصير ،،،

* تعريف بالشاعر: المولد و النشأة

اختلفت الروايات حول نسب الشنفرى ومولده وحياته ، وأغلبها تذكر أنه من بنى الأواس (بكسر الهمزة أو فتحِها) بن الهنيء (بالتصغير) بن الأزد بن غوث [١]، فهو أزدى من أزد شنوءة التي استوطنت جبال السراة بين مكة والمدينة وكان أبوه فى قلة من المال وأمه كانت سبية[٢] ،واسمه ثابت بن جابر من بنى الأزد،والمرصفي يقول فى(أسرار الحماسة):" لم يعلم اسمه وزعم بعض الناس أن اسمه شمس بن مالك"[٣]،وقيل اسمه عامر ابن عمرو الأزدي ، وهو من بنى الحارث بن ربيعة[٤] .

و"الشنفرى" لقب غلب عليه[٥] لعظم شفتيه، قال المبرد: أصل "الشنفرى" : البعير الضخم ، وقيل العظيم الشفتين، وعظم الشفتين وغلظهما من سمات الجنس الأسود .

والشنفرى شاعر جاهلي قحطا ني من الأزد كما يقول صاحب الخزانة : وهو أحد أغربة العرب وأحد العدائين الثلاثة المشهورين

---

١ - راجع في ترجمته :الأغاني جـ١/٨٧،المفصليات ص١٠٨،حماسة أبي تمام ص ١٨٧ ، الطرائف الأدبية لعبد العزيز الميمنى ص ٢٧ ط دار الكتب العلمية - بيروت .

٢ - الأغاني جـ ٢١ /١٧٩

٣ - أسرار الحماسة ، سيد على المر صفى ص ٤٤ ،جـ١، مطبعة أبى الهول - القاهرة ١٩١٢م .

٤ - شرح المفصليات للتبريزى ، تحقيق على محمد البجاوى ، ص٣٧٩ .

٥ - خزانة الأدب ، البغدادي جـ٣ ص ٣٤٣، تحقيق عبد السلام هارون - ط الهيئة المصرية العامة .

وهم: " الشنفرى، وعمرو بن براق، و تأبط شراً " ، يقال : " أعدى من الشنفرى[١] " ، وهو ابن أخت تأبط شراً[٢] .

وهو هجين يصرح بذلك في شعره حين يقول :

ألا ليت شعري والتلهف ضـــلة بما ضربت كف الفتاة هجينـــها

وهو أحد صعاليك العرب وفتاكهم ،هؤلاء الصعاليك الذين كـــان لهم منهج خاص في حياتهم ،ومنهم عروة بن الورد ،ســـيد الصـــعاليك وإمامهم ومؤسس مذهبهم [٣]. (٢) ، والسليك بن السلكة و تـــأبط شـــراً الذي تتلمذ شاعرنا على يديه فصار أستاذاً وإماماً له في دنيا الصـــعلكة والفتوة و الفتك .

ومن ناحية مولده لا نستطيع أن نقف على تاريخ ميلاده الحقيقـــي بالتحديد فذلك من الأمور الشاقة العسيرة علي دارس الأدب الجـــاهلي خاص .

ويري الدكتور محمود حسن أبو ناجي أن ميلاد الشـــنفرى كـــان قريب عهد بالإسلام، ودليله في ذلك أن الشنفرى كان علي صلة بشاعر صعلوك مثله أسلم فيما بعد هو أبو خراش الهذلي الذي كـــان صـــديقاً

---

١ - مجمع الأمثال ، الميداني جـ٢/٣٩٤ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبـــراهيم - ط عيســـى البابى الحلبي .

٢ - انظر المفضليات، المفضل الضبي تحقيق وشرح احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف ص١٠٨ وشرح المفضليات ص ٣٧٩

(٣) يقال عنه أبو الصعاليك وزعيمهم وموجههم ، وقد عرف عنه الجانـــب الإنســـاني فـــي المفهوم الصعلوكي (الأغاني ج١٣ط بولاق.

لشاعرنا " ومن المحتمل أن ميلاد الشنفرى كان قريبا جداً من ظهور الإسلام إذ أن أبا خراش عمر وعاش حتى خلافة عمر بن الخطاب الذي انتهت خلافته عام ٢٤هـ وربما قتل الشنفرى في العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة قبل الإسلام أي قبل الإسلام بحوالي أربعين سنة تقريبا[١].

وعن نشأته أثبتت كتب التاريخ والأدب أن الشنفري قد وقع في السبي وهو غلام وبيع لسيد من بني سلامان" فجعله الذي سباه في بهمة رعاها مع ابنة له" [٢].

وقد وردت في أخبار أسره وسبيه روايات كثيرة مؤداها أنه ربي في غير أهله .

" أسرته بنو شبابة بن فهم فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان رجلاً من بني شبابة ففدته بنو شبابة بالشنفرى ،فكان الشنفرى في بني سلامان لا يحسب نفسه إلا أحدهم حتى نازعته بنت الرجل الذي في حجره ، وكان قد اتخذه ابنا له فقال للفتاة ذات يوم : اغسلي رأسي يا أخية ، فأنكرت أن يكون أخاها ولطمت وجهه فذهب مغاضبا حتى قدم إلي الرجل الذي اشتراه وكان غائبا فقال له الشنفرى : ممن أنا ؟ قال: من الإواس بن الحجر ، فقال الشنفرى : أما أني لا أدعكم حتى أقتل منكم مائة رجل ، فقام بقتلهم حتى قتل تسعة وتسعين رجلا ، ولما

---

(١) الشنفري شاعر الصحراء الأبي د: محمود حسن أبو ناجي ص ٢٤ .

(٢) الأغاني ج ٢١ ١٢١ ٨٠٦.

ضرب رجل رأسه بعد موته عقرت قدمه فمات فكمل قسم الشنفري بقتل مائة من بني سلامان "[١].

وهناك رواية أخري لصاحب المفضليات تشير إلي أن الشنفرى لم يقع في السبي والرق وحده بل كانت معه أمه وأخوه الصغير، أخذوا جميعاً رهينة في بني فهم ولم يفدوا فنشأ فيهم الشنفرى ، فكان شديد البأس وكان أشد من بني فهم علي الأزد قتلاً وسلباً [٢].

أما أبوه فقد قتل في معركة اصطرع فيها قوم الشنفرى مع بني شبابة إحدى قبائل فهم بن عدوان ، وقد هزموا ، وأخذ الشنفرى أسيراً ، وظل في فهم حتى زهدوه واستبدلوا به أسيراً منهم كان قد وقع في أيدي أعدائهم بني سلامان ، كل ذلك والشنفرى مازال غلاماً فعاش في بني سلامان معتقداً أنه واحد منهم حتى ظن أن الرجل الذي تبناه هو أبوه الحقيقي فكان يناديه بأبي إلي أن انقشعت عن عينيه غشاوة تلك المأساة التي يحياها فلما علم الحقيقة جعل ينقم على بني سلامان ثم عاد إلي بني فهم " تلك القبيلة المشهورة بلصوصها ، وهناك اتصل به تأبط شرا ، ووجد فيه تلميذاً ممتازاً ، فلقنه دروس الصعلكة الأولى ، ورأى الشنفرى أن فرصته في الانتقام من قبيلة الأزد قد سنحت له فصب عليها كل غزواته "[٣].

هكذا عاش الشنفري حياة مشردة ملؤها السخط والانتقام ....

---

(١) حماسة أبي تمام ص ١٧٨شرح التبريزي دار القلم بيروت.

(٢) انظر المفضليات شرح الأنباري ص ١٩٥.

(٣) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي د : يوسف خليف ١ ٣٧٥ط٤ دار المعارف.

الانتقام من قاتلي أبيه ، أو قاتل والد زوجه " قعسوس " كما في بعض الروايات ، أو قاتلي شبابه وحريته وعيشه الطبيعي بين أبوين يعطفان عليه ويسقيانه كؤوس المودة والحنان، وبذلك تضافرت عدة عوامل أو أحداث لا ترجع أهميتها لذاتها بل لما عكسته من آثار علي نفس وحياة وتكوين شخصية ذلك الشاعر الساخط الغاضب ليصبح هو ماهو بتلك الكيفية التي صنعتها ظروفه ، فمن سبي له هو وأمه وأخوه وهو مازال غضاً طرياً إلي موت أبيه أوقتله بين قومه فحرم نعمة الحرية ونعمة الأبوة ، إلى صدم عندما علم أن الرجل السلاماني ليس والده ، وأنه سبي ولا يحق له أن يتزوج بحرة هي "قعسوس"ابنة ذلك الرجل ، حتى عندما علم سيده بحقيقة نسبه وزوّجه ابنته لما عرفه عنه من الشجاعة والبأس والصرامة أبي الدهر إلا أن يعكر عليه صفو الفوز بحبيبته ، فقتل والد زوجه وشُغل الشنفرى بأخذ ثأره وتمادى في الانتقام والثأر فآلى أن يقتل من قاتلي والد زوجه مائة ، ووفى بوعده فقتل تسعة وتسعين نفساً ثم قتل وصلب فمر رجل به وقد سقطت جمجمته على الأرض فقذفها برجله فعقرتها فمات وبذلك أكمل المائة[1].

تلك حياة شاعر تلقفته عوامل التشرد والصعلكة منذ مراحله الأولى ، نشأ نشأة غير طبيعية في غير قومه ففقد توازنه الاجتماعي كما فقد تماسكه الأسري عندما فقد أباه وأخاه الصغير ، وفقد الأمان والاستقرار عندما فقد حريته ولمّا يزل غض الإهاب فكان حرياً بتلك الحياة غير

---

(١) انظر الأغاني ٢١/١٨٦.

العادية أن تلقي به للوهلة الأولى في أحضان الصعلكة والتشرد ..

فربي على أخلاق الصعاليك ومبادئهم ، وأشربت، نفسه مقومات العنف والسخط والكراهية لكل الناس ، فقتل منهم ما شاء أن يقتل إلى أن قتل وصار في عداد هؤلاء الشعراء الصعاليك الذين حملوا بين جوانحهم نفوساً أبية لا تعبأ بالحياة المادية بل تسمو وترتفع إلى مكارم الأخلاق .

موضوعات شعره :

لما كان الشنفرى في عداد الشعراء الصعاليك فمن الحري به أن تكون موضوعات شعره على ذلك النسق من موضوعات الشعراء الصعاليك ، تلك الموضوعات التي لم تكن تخرج عن مألوف الشعر العربي في موضوعا ته ولكنها كانت تحمل مفاهيم جديدة تناسب أفكار الصعاليك ونهجهم فهي تدور في معظمها حول الغارة والقتل والعدو والعفة وإباء الضيم والافتخار بالشجاعة والحكمة ٠٠٠٠٠٠الخ إلي جانب الموضوعات أو الأغراض المألوفة الأخرى كالغزل ، والكرم ٠٠٠٠الخ

ومن الموضوعات التي طرقها الشنفرى في شعره وكانت توائم نفسيته وتعكس عوامل بيئته ونشأته :

الفتك والغزو والعدو – الافتخار بالشجاعة – العفة وإباء الضيم – شعر المراصد وهي ما أسماه د محمود حسن أبو ناجي " أبراج المراقبة "[١].

فالبيئة العربية بطبيعتها الجغرافية من جبال و وهاد ، وانحناءات وكهوف ووديان ساعدت الصعاليك على أن يتخذوا منها مراقب ومراصد وأماكن اختفاء لشن غاراتهم

يقول تأبط شرا وهو يرثي تلميذه ويذكر ترقبه في المراصد[٢] :

---

١ – الشنفرى شاعر الصحراء الأبي ص ٧٨

٢ – الطرائف الأدبية ص ٢٨

ومرقبة شمّــاء أقعيــت فوقهــا ليغنم غــاز أو ليــدرك ثــائر

وهناك شعر الغزل ، ذلك الغزل العفيف الذي كان يتغنى بجمال المرأة الخلقي والمعنوي لا بجمالها الحسي كما عهدنا عند امرئ القيس أو طرفة بن العبد ..

وخير ما يصوِّر هذا الغزل العفيف الطاهر تلك التائية الرائعــة التي نسجها ذلك الشاعر الجاهلي الصعلوك في صفات المرأة العربيــة الشريفة الطاهرة ، فحق لتلك التائية العظيمة أن تحلق في سماء العــزة والشرف والكرامة على مر الدهور .

القصيدة[1]

(١)أَلا أَمُّ عَمرو أَجمَعَت فَاستَقَلَّت ... وَما وَدَّعَت جيرانَها إِذ تَوَلَّت

(٢)وَقَد سَبَقَتنا أُمُّ عَمرو بِأَمرِها ... وَكانَت بِأَعناقِ المَطِيِّ أَظَلَّت

(٣)بِعَينَيَّ ما أَمسَت فَباتَت فَأَصبَحَت ... فَقَضَّت أُموراً فَاستَقَلَّت فَوَلَّت

(٤)فَوا كَبِدا عَلى أُمَيمَةَ بَعدَما ... طَمِعتُ فَهَبها نِعمَةَ العَيشِ زَلَّت

(٥)فَيا جارَتي وَأَنتِ غَيرُ مُليمَةٍ ... إِذ ذُكِرتُ وَلا بِذاتِ تَقَلَّت

(٦)لَقَد أَعجَبَتني لا سَقوطاً قِناعُها ... إِذا ما مَشَت وَلا بِذاتِ تَلَفُّت

(٧)تَبيتُ بُعَيدَ النَومِ تُهدي غَبوقَها ... لِجارَتِها إِذا الهَديَّةُ قَلَّت

(٨)تَحُلُّ بِمَنجاةٍ مِنَ اللَومِ بَيتَها ... إِذا ما بُيوتٌ بِالمَذَمَّةِ حُلَّت

(٩)كَأَنَّ لَها في الأَرضِ نِسياً تَقُصُّهُ ... عَلى أَمِّها وَإِن تُكَلِّمكَ تَبلَت

(١٠)أُمَيمَةُ لا يُخزى نَثاها حَليلَها ... إِذا ذُكِرَ النِسوانُ عَفَّت وَجَلَّت

(١١)إِذا هُوَ أَمسى آبَ قُرَّةَ عَينِهِ ... مَآبَ السَعيدِ لَم يَسَل أَينَ ظَلَّت

(١٢)فَدَقَّت وَجَلَّت وَاسبَكَرَّت وَأُكمِلَت ... فَلَو جُنَّ إِنسانٌ مِنَ الحُسنِ جُنَّت

(١٣)فَبِتنا كَأَنَّ البَيتَ حُجِّرَ فَوقَنا ... بِرَيحانَةٍ رَيحَت عَشاءً وَطَلَّت

(١٤)بِرَيحانَةٍ مِن بَطنِ حَليَةَ نَوَّرَت ... لَها أَرَجٌ ما حَولَها غَيرُ مُسنِتِ

١- رواية المفضليات ، طبعة دار المعارف ، الطبعة السادسة ، تحقيق وشرح احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ص١٠٨ ، وقد بلغت هذه التائية بشرح المفضليات أربعة وثلاثون بيتا كما جاءت هنا ، وفى رواية أخرى بلغت ستة وثلاثين بيتاً (انظر من القيم الإنسانية عند شعراء الجاهلية ، د. رزق محمد سيد احمد ص٧٣، ٧٤)

حول القصيدة :

إذا كان بعض الشك قد اعترى"لامية"الشنفرى،فنسبت إلى غيره في بعض الروايات[١]

وإذا كانت "اللامية"قد نالت من الشهرة والذيوع والمكانة ما نسبت به إلى العرب أجمعين

فقالوا"لامية العرب"ونسجت على غرارها "لامية العجم "للطغرائي،كما نالت قسطاً وافراً من الاهتمام والعناية شرحاً وتفسيراً على يد الأدباء والعلماء قديماً [٢] وحديثاً لأهميتها الأدبية والأخلاقية[٣]،فإن "التائية" لاتقل في مكانتها وأهميتها وعظمتها عن "اللامية"،ولا غرو،فالمبدع واحد،والمنبع الذي استقى منه الصانع هو هو بكل مافيه من أخلاقيات سامية،ومعان ساحرة،وألفاظ بارعة، وإيحاءات كريمة عفة،وسمات جمالية رائعة كست المرأة العربية ثوباً من الحشمة والوقار.

وعن جو القصيدة:فقد بدأ الشنفرى قصيدته بالغزل والتشبيب على عادة شعراء الجاهلية،وإن كان غزله وتشبيبه ذا طبيعة خاصة تنافي ما

---

١ - الشنفرى شاعر الصحراء الأبي ، د. محمود حسن أبو ناجي ص ١١٦ وما بعدها .

٢ - أشار بروكيل مان إلى ذلك فى كتابه تاريخ الأدب العربي ، وعدد أكثر من شرح لهذه القصيدة ، ج١ / ١٠٥

٣- والدليل على ذلك ما روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - انه قال : " علموا أولادكم لامية العرب فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق " ، الغيث المنسجم في شرح لامية العجم ، صلاح الدين الصفدي ، ص٢٧ ، دار الكتب العلمية ، ط١ سنة ١٩٧٥

دأب عليه الشعراء الغزلون في العصر الجاهلي إذ أن ثمة فارقاً واضحاً بين غزله وغزلهم،فهؤلاء من أمثال امرىء القيس أو طرفة بن العبد،لهثوا وراء الجانب الحسي للمرأة فوصفوا جمال الجسم،ورشاقة القد،واحورار العين،واسوداد الشعر وعذوبة الريق وحلاوة الثغر،أما صاحبنا العف الأبي فنأى بجانبه عن تلك المحسوسات الفانية وحلق في الجانب الروحي للمرأة، ذلك الجانب الذي يحمل من السمو والرفعة والحشمة الشيء الكثير،ومن ثم غاص في أعماق المرأة،وأبدع في وصف مشيتها والتنويه بمحاسنها،بل نقول إنه أبدع في تصوير حياتها بشكل عام أيما إبداع

ثم خلص من الغزل والتشبيب إلى وصف غزوة له،فخر فيها ببأسه وقوته وشدته على أعدائه،ولم ينس في معرض فخره بنفسه أن ينوه بفضل صديقه وأستاذه ومعلمه الأول في الصعلكة "تأبط شراً"ثم دعاه وصف تلك الغزوة إلى وصف عُدة الحرب وهي السيف أو الحسام.

ولما كانت حياة الشنفرى بكل ظروفها وأحداثها التي علمناها تدفعه دفعاً إلى الثأر والانتقام،نراه قد عرّج على ذكر ثأره من قاتل أبيه،مفتخراً أثناء ذلك باستهانته بالحياة،ومجازاته الشر والخير بمثلهما.

نظرة عامة في تائية الشنفرى

إذا نظرنا إلى قصيدة الشنفرى نظرة كلية إجمالية عامة وجدناها تدور حول محورين كبيرين هما:حديث الحب وحديث الحرب،حتى إذا نظرنا نظرة تأملية فاحصة وجدنا أن كل محور من هذين المحورين

تندرج تحته عدة أفكار للشاعر تنمي فكرة المحور الرئيسي وتعضده،وتثريه،وتفصح عن ملامحه ٠

وقد استأثر بحثي هذا بالمحور الأول وهو "حديث الحب" أو كما يقال في القصيدة العربية حديث الغزل فهل يا ترى كان شاعرنا الشنفرى من هؤلاء الشعراء الغزلين الذين وقفوا على الأطلال،وبكوا الديار،واستنطقوا الآرام وطارت أفئدتهم شعاعاً على الحبيبة الظاعنة؟

نقول: لا،لأنه من الخصائص التي ميزت الشنفرى في قصائده عدم وجود مقدمة غزلية ،لأن الصعاليك والشنفرى منهم،ليس لديهم وقت للوقوف على الأطلال أو بكاء الديار فهم مشغولون بالإغارة والتربص بالقوافل،والسعي وراء لقمة العيش لهم ولمن يعولون،ولا وقت لديهم أيضاً لتجويد قصائدهم وتدبيجها وترصيعها بتلك المقدمات الغزلية البديعة التي كان ينسجها شعراء الجاهلية لاستمالة القلوب وتهيئة الأسماع،فالغزل كما يقول ابن قتيبة:"لائط بالقلوب متعلق بالنفس محبب إلى الأسماع"[1]،أما شاعرنا فقد طرح كل ذلك وراء ظهره شأنه شأن رفاقه في مدرسة الصعاليك،فهذا عمرو بن براقة أحد الصعاليك يعبر أنه لاوقت لديه حتى للنوم الهادىء المطمئن الخلي فيخاطب امرأته قائلاً:

ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم　　　قليل إذا نام الخلي المسالم[2]

على هذا النهج سار الشنفرى التزاماً واحتراماً لتقاليد رفاقه

---

١ - انظر الشعر والشعراء ج١ / ٨٠ ، تحقيق احمد شاكر ط٣ ، ١٩٧٧م

٢ - ديوان الحماسة ج ١- ص٢٢

الصعاليك في خلو مقدمات قصائده من الغزل،وأيضاً لعدم ميله الطبيعي أو الشخصي للغزل،حيث كانت له نظرة للحياة خاصة لما اعترى تلك الحياة المتقلبة من يأس وقنوط فلا أهل ولا مال ولا ولد ولا قبيلة فاحتقر الحياة واستهان بها وبكل مغرياتها وأعراضها ووفر حياته كلها على الإقدام والفتك والقتال.

ولكنا نتساءل ما هذه المقدمة التي تبدأ بالحديث عن المرأة- زوجته- والمرآة هي محور الغزل في المقدمات الغزلية للشعراء الجاهليين؟

نقول: نعم إنه تحدث في مقدمته عن المرأة،ولكن أية امرأة؟ إنها زوجته التي يحمل لها كل آيات الحب الصادق العفيف،والعاطفة المتزنة العاقلة،إنه في تلك المقدمة يمتدح عفة زوجته وحشمتها وأخلاقها،فهو لا يبكي ويستعبر ولا يقف علي الطلل الماحل يسأله ويستنطقه عن مكان حبيبته الظاعنة،ولا يحلم ولا يهيم على أثر تلك الحبيبة.

إذن مقدمته تلك لا نقول أنها مقدمة غزلية تقليدية على عادة شعراء عصره ولكنها حديث الحب ،حديث الاحترام والإكبار والإجلال لزوجه الفاضلة،لذا نجده اتخذ في سبيله لإيضاح تلك الفكرة عدة نقاط بنى عليها ذلك الحديث على مدى أربعة عشر بيتاً هي قوام هذا البحث متناولة إياها بالشرح والتفصيل.

أما المحور الثاني وهو"حديث الحرب"فقد استغرق بقية القصيدة من البيت الخامس عشر حتى البيت الرابع والثلاثين وهو قمين بالبحث والدرس.

مع الشنفرى .. وأخلاق المرأة العربية

دارت أفكار الشنفرى عندما تحدث عن زوجته خلال أربعة عشر بيتاً حول عدة محاور صورها فيها بصورة سامية فاضلة كشفت عن مكانة المرأة في العصر الجاهلي،تلك المكانة التي تبوأتها سواء في الحياة العامة أم في الحياة الاجتماعية أم السياسية والحربية أيضاً ،مما ينبيء عن أن المرأة العربية الجاهلية كانت ذات شخصية يُعتد بها ،ورأى وحرية،ناهيك عن عزتها، وعفتها،وعلو قدرها،وطهارة عرضها .

فالمحور الأول

يصور : شخصية الزوجة ، وحريتها في اتخاذ القرار :

يقول الشنفرى:

(١) ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت وما ودعت جيرانها إذ تولت[١]

فهو يبدي أسفه وحزنه لرحيل زوجته أو محبوبته "أم عمرو" ، التي فارقته دون أن تعلمه ، فقد كان قرارها صادراً منها وحدها ، حين عزمت على الرحيل ونفذته ، يبدو ذلك من تعقيب الشاعر بالفاء بعد "أجمعت" في قوله : "فاستقلت" ، لأن الفاء كما يقول النحويون تفيد الجمع والترتيب والتعقيب[٢] ، لهذا كان جزع الزوج وندمه لهذا الفراق

(١ أم عمرو : كنايه عن زوجته ، أجمعت : عزمت أمرها ، استقلت : غادرت المكان وارتحلت ، تولت : ذهبت.

٢) انظر مفتاح الإعراب ، محمد بن على عبد الرحمن الأنصاري ، تحقيق وجمع سعد كريم الدرعمي ، ص ١٠٨ .

والسفر والاغتراب المفاجئ الذي جاء بغتة وعلى عجل دون استشارة من زوجته فربما كانت هناك أمور وخطوب جسام تستدعي رحيلها على تلك السرعة ، وربما كان هو في غزوة عندما عزمت على الرحيل فلم يودعها أو يرتحل معها ، لذا نراه لمّا فوجئ بذلك منها صرخ فزعاً ، وهتف أسفاً قائلا : "ألا أم عمرو" وهي أبلغ من قوله في بعض الروايات : "أرى أم عمرو" إذ تحمل "ألا" جزع الشاعر وأسفه لرحيل زوجته أو صاحبته ، وبُعدها عنه ، ذلك البعد الذي صيره حزيناً مكتئباً أسيفاً ، وهي التي خلبت لبه وسرقت قلبه وتركته وحيدا شريدا .

وفي قوله : "استقلت" معنى الاستقلال بالرأي في المضي والارتحال ومغادرة المكان ، فيكون المراد : أن تلك الزوجة أجمعت أمرها وعزمت على الرحيل لأمر ما وأنفذت ذلك العزم فركبت الرحل وغادرت المكان أو البيت (فربما تكون غاضبة من زوجها أو من شئ ما مثلا) على وجه السرعة يشير إلى ذلك قوله : "وما ودعت جيرانها" حين ذهبت وتولت وبذا أرى أن قوله : "استقلت" يكون بمعنى :استأثرت بالرأي دون زوجها ولم تشاركه فيه[١] ، وذلك المعنى فيه ما فيه من الاستقلال بالرأي والانفراد به مما يؤكد على حرية المرأة العربية في اتخاذ القرار في الجاهلية والإسلام دون غيرها من نساء الأمم الأخرى

"فقد استمتعت بحريتها في اختيار زوجها فهي لم تكن تقسر على

---

(١) وهذا غير ما ذهب إليه بعض شُراح هذه الكلمة كما جاء في الهامش من أن معناها : غادرت المكان وارتحلت

زوج لا ترتضيه أو تُزوج بغير مشورة ، ولم يكن للآباء ما كان لهم عند اليونان من سلطة مطلقة على البنات لا تُحد ، إذ كان للولي أن يزوجها بغير استشارتها ... ولم يكن للعرب أن يبيعوا بناتهم أو يزوجوهن بغير علمهن كما كان يفعل اليهود ... وكانت النساء يستطعن العودة إلي ذويهن إذا أسيئت معاملتهن ، وفي بعض الحالات كن يهبن أنفسهن للزوج ، وكان لهن حق الطلاق ، ولم يكنّ يعددن عبيداً أو أسارى ، بل أنداداً ورفيقات"[١]. وفي الإسلام : "كثيراً ما تخيرت المسلمات أزواجهن"[٢]. كل ذلك يدل على تمتع المرأة بحريتها من قديم في أمور الزواج والطلاق وهي أمور من الأهمية بمكان فلا غرو أن تتمتع تلك الزوجة بالحرية في اتخاذ قرار الارتحال وحدها سيما إذا كانت هناك أمور أو خطوب تستدعي ذلك ، وبالفعل كان الأمر كذلك إذ قال الشاعر في البيت الثالث : "فقضّت أموراً" وفي رواية "فقضت خطوباً" ، ومعناه : أنجزت وأنهت أموراً أو قضّت أموراً عظيمة من الخطب ، وفي قول الشاعر :

(٢) وقد سبقتنا أم عمرو بأمرها وكانت بأعناق المطي أظلت[٣].

إشارة إلي ما ذهبنا إليه من تلك الحرية - سيما في اتخاذ القرار- التي كانت تستمتع بها المرأة العربية الجاهلية ، فالشنفرى

---

(١) المرأة في الشعر الجاهلي د. احمد محمد الحوفي ، ص ١٨٧ و ١٨٨.

(٢) انظر المرجع السابق ، ص ١٨٨ .

(٣) سبقتنا بأمرها : استبدت واستأثرت به ، كانت بأعناق المطي أظلت : أي فجأتنا بالإبل حتى أظلتنا بها.

يقول : لقد سبقتنا أم عمرو في اتخاذ قرار الرحيل وحـــدها ، وفجأتنـــا بالإبل التي كانت ترتحل عليها ، تلك الإبل التي كانت من الكثرة بحيث أظلتنا .

أما البيت الثالث :

(٣) بعينيّ ما أمست فباتت فأصبحت فقضّت أموراً فاستقلت فولت[١]

فيـــُحمل على حب الشاعر وإعزازه لزوجته ، ومكانتها في نفسه وقلبه وعينه ، لأنه عندما يقول : "بعينيّ" نجد تلك اللفظة تحمـــل كـــل معاني الأسف والندم إذ "يرى رحيلها ولا حيلة له"[٢]

وقد كانت تقضية هذه الأمور أو الخطوب أمام ناظريه فكان أسفه وندمه شديداً "لأن مُشاهد هذه الفجائع ليس كمن مُنى بها على بعد[٣]

فوقف عاجز أمام رحيلها ، ولسنا ندري لمَ ؟ أكانت هذه الخطوب أو الأمور الجسام تخصها هي؟ أم تراه كان مشغولاً بأمر لا يمكّنه من الرحيل معها وأيا ما كان الأمر من وقوفه مكتوف الأيدي أمام إصرار وعزم زوجته على الرحيل فإن هذا البيت يحمل آيات الحب الممـــزوج بالحسرة على فراق زوجته خاصة إذا فسّر هذا البيت على أن الشاعر يقول : هي بعينيّ ، وهي في مقلتيّ طيلة ما تمسي ، وتبيت ، وتصبح

---

(١) قضّت أمورا : أنجزت وأنهت أمورا أي حاجات ، وفي رواية : قضت خطوبا ، والخطب : الأمر العظيم ، وفي رواية أيضا : فتامت قلوبا أي ذهبت بها .

(٢) كما جاء في المفضليات ص ١٠٨

(٣) شرح المفضليات للتبرزي ص ٣٨٠

، وترحل ، وتبعُد ، فلا تذهب من خيالي ولا يفارق مرآها عيني في حلها وترحالها ، ويمكن أن يكون تفسيره على نحو آخر أي بعينيّ رأيت وشاهدت ما جري لزوجتي وحبيبتي من مشاهد الفراق منذ أمست – فربما تكون قد عزمت على الرحيل من المساء – فباتت فأصبحت فأنجزت وعدها في الرحيل فأقلتها الرواحل أو فركبت هي الراحلة فذهبت بعيداً ، وقول الشاعر: "فباتت ، فأصبحت ، فقضت ، فاستقلت ، فولت" بهذه الفاءات المتعاقبة التي حملتها تلك الأفعال من المبيت ، فالإصباح ، فالتقضية ، فاستقلال الراحلة ، فالتولي والذهاب ما يدل على جيشان عاطفة الشاعر المؤججة بالحب والتلهف تجاه تلك الزوجة ، وكأن تلك المشاهد كلها مرت أمام ناظريه مرور شريط سينمائي وهو واقف أمام زوجته أسيفا حزيناً لم يحر جواباً ، وقد أظلته الرواحل التي ستقل الحبيبة ، ولهذا جاءت لفظته "بعينيّ" ملائمة تماماً لمشاهد الفراق تلك ، وجاءت الفاءات المتوالية لتدل على الجمع والترتيب والتعاقب والتوالي لتلك الأفعال التي أتت بها الزوجة ، على تلك السرعة التي حاكتها سرعة هذه الأفعال حين اقترنت بالفاء لهذا كان وقع الرحيل على قلبه وسمعه وبصره أليما متعاقبا فجائيا لم يملك تجاه صدّه فتيلا .

ومن آيات حب الشاعر لامرأته وإعزازه لها في هذه الأبيات تكنيته لها "بأم عمرو" فلم يذكر اسمها صراحة لأن في التكنية تكريماً لها ، وفي ذكر الاسم ابتذال ، وقد كانت العرب تدرك ذلك ، والشعر العربي يزخر بكثير من الكنى لزوجات الشعراء فمن مَن لها باسم

ولدها إعزازاً لها ومسرة ، كقول أوس بن حجر التميمي لزوجته :

ألم تعلمـــي أم الجـــلاس بأننـــا كرام لدى وقع السيوف الصوارم[١]

إلي ملقب لها بأبيها ، كقول عروة بن الورد :

أقلي عليّ اللوم يا ابنـــة منـــذر ونامي فإن لم تشتهي النوم فاسهري

إلى من كُنيت بميزة من ميزاتها كربة الخـــدر مـــثلا ، ويؤكـــد التكريم بتلك الكنى قول الشاعر :

أكنيه حـــين أناديـــه لأكرمـــه ولا ألقبه والســـوءة الأدبـــا[٢]

ولشدة حب شاعرنا لزوجته واحترامه لها ذكرها في كل مرة بـــ "أم عمرو" في البيتين الأول والثاني .

ولفظة : "فاستقلت" في البيت الثالث تعني : مضت وارتحلـــت ، من :"استقل القوم" أي مضوا وارتحلوا كما جاء في المعجـــم وليســـت تعني أن الزوجة استأثرت برأيها واستقلت به واســـتبدت ، لأن ذلـــك المعنى لا يلائم جو هذا البيت بل لا ينسجم مع تلك الأفعال المتعاقبـــة فالشاعر يذكر أن الزوجة أمست ، فباتـــت ، فأصـــبحت ، فاســـتقلت الراحلة ، فذهبت ، وبذلك يكون هناك انسجام وتوافق ووئام بين تلـــك الأفعال التي صدرت من الزوجة على هذا النحو من الترتيب المنطقي الذي أراده لها الشاعر منذ أتي المساء على الزوجة حتـــى رحلـــت ، ويكون هناك عدم انسجام وعدم توافق حين نقول ان الزوجة أمســـت ،

---

(١) حماسة البحتري ص ٢٤٢

(١) ديوان الحماسة لأبي تمام ، تعليق د.خفاجي ، ص ٢٧

فباتت ، فأصبحت ، فاستقلت برأيها فولت ،لأن استقلالها برأيها جاء بعد إجماع أمرها وعزمها على الرحيل كما في البيت الأول ، فهي عندما صممت وعزمت دون أن تُعلم أو يعلم زوجها كان في ذلك استقلال ، بل واستبداد منها برأيها .وفي قول الشاعر :

(٤) **فوا كبدا على أميمة بعدما طمعت فهبها نعمة العيش زلت**[١]

يحمل غاية الندم والتحسر على فراق أميمة بعدما أطمعته في العيش الهنيء السعيد وفي وصلها وقربها منه ، ولو كانت "طعمت" بدل "طمعت" لكان أفضل إذ في ذلك تذوق لحلاوة السعادة الزوجية الهانئة معها ، لكنه سرعان ما يتذكر جريان المقادير دائما بغير ما يشتهي المرء، فيسلم بذلك معزيا نفسه ، مواسيا قلبه بقوله : "فهبها نعمة العيش زلت" وفي ذلك تسلية لنفسه وتعزية لقلبه على ما ألم بهما من حر الفراق ، وفي ذلك تسليم منه بالمقادير ، وكأنه يقول احسبها أيها الرجل – يقصد نفسه– أو أيها المرء – يقصد غيره – نعمة ذهبت لحالها ، استمتعت بها حيناً ثم ولّت ، فلا ضير لأن ذلك عادة الدهر وديدنه لا يستقر على حال ، وكما يقولون : "دوام الحال من المحال" .

وإذا تأملنا هذا البيت وجدنا أن الشاعر ذكر زوجته أو حبيبته هذه المرة باسمها مجردا "أميمة" بعد أن كان قد كناها بـ "أم عمرو" مرتين ، فنقول انه لا تعارض هناك بين أن يكنيها أو يذكر اسمها صراحة ،

---

(٢) واكبدا : تحسر وندم وتفجع من الم الفراق ، ويروى : فوا أسفا ، ويروى أيضا : فوا ندما ، هبها : معناه احسبها ، يقال : وهبني الله فداءك ، بمعنى جعلني الله فداءك .

لأنه كما في تكنيتها تكريم واحترام وإعزاز كذلك في ذكر اسمها مجرداً حب وإكبار وتدليل وألفة ، وقرب النفس إلى النفس .

ونلحظ على هذه الأبيات الأربعة الترابط والتسلسل والتنسيق وكأنما يأخذ بعضها برقاب بعض فالشاعر كأنه كان يقول البيت وأخاه لا البيت وابن عمه كما كان يقول عمر بن لجأ لبعض الشعراء [١] ، والشاعر هنا ربط بين معانيه في هذه الأبيات فجاءت مرتبة ترتيباً منطقيا، فقد بدأ بذكر عزم زوجته على الرحيل دون أن تودع جيرانها في البيت الأول ، وفي البيت الثاني أشار إلى أن ذلك جاء منها استقلالا برأيها واستبدادا ، وقد أنفذت رأيها فعلا وامتطت الراحلة، وهذا متعلق تمام التعلق بالبيت الأول بل هو نتيجة له فهي قد أجمعت أي عزمت ، فاستبدت برأيها في ذلك القرار ثم امتطت الراحلة ، والبيت الثالث جاء ليكمل صورة الرحيل إذ الشاعر واقف حيران يتذكر ما مر بالأمس والليل والصبح من أحوال زوجته التي قضت خطوبا في هذه الأوقات إلى أن استقلت الراحلة فذهبت بعيدا إلي حيث لا يدري ، ثم يأتي البيت الرابع ليصور جزعه وحرارة حرمانه منها عندما غابت عن ناظريه فبدأ يواسي نفسه ويعزيها وكأنه يقول لنفسه ولمن معه ... ولنا "هذه حال الدنيا" تطمعنا في وصلها والعيش الرغيد في ظلها ثم تفجؤنا ببعدها ورحيلها مخلفة لنا الدموع والحسرة والحرمان .

أما التبريزي في شرحه للمفضليات فقد جعل البيت الرابع في

---

(١) الشعر والشعراء ج١ ص ٣٦

المفضليات (ط المعارف) جعل ترتيبه الخامس (فوا كبدا على أميمة..) ولا يستقيم بذلك ترتيب الكلام وتسلسل الأحداث لدى الشاعر ، ذلك التسلسل الذي وعاه الشاعر جيداً،بل يؤدي لأفتقاد الأبيات ترتيب معانيها في نفس الشاعر ، فتفتقد الوحدة والانسجام بين بعضها البعض لأن التبريزي أدخل قول الشاعر : (فيا جارتي وأنت غير مليمة ...) وهو من الصفات الخلقية إذ يجسد العفة ثم جعل الشاعر يهتف بعد ذلك ويقول صارخا(فوا كبدا على أميمة) وهذا لا يستقيم والوحدة النفسية والفكرية للشاعر.

المحور الثاني :

صفات الزوجة الخُلقية والخِلقية:

أولاً: الصفات الخلقية :

وقد أقامها الشنفرى على دعائم منها :

١) عفتها :

كانت الأخلاق العربية تقوم على دعائم وأسس منها : الاعتزاز بالشرف، صيانة المرأة ، الحفاظ على سمعة الأسرة والقبيلة، والتباهي بحسن الأحدوثة، كل هذا كان مدعاة لأن يتعفف الرجال، وتتصون النساء، فالعدوان على العرض كان يكلف العربي كثيراً فيشعل حرباً ضروساً لا يخمد أوارها فتزهق الأرواح، وتراق الدماء أنهاراً حتى يعود الشرف الرفيع سالماً ، على حد قول شاعر العربية المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يُراق على جوانبه الدم

ومجتمع هذا شأنه إذن العفة فيه لها شأن أي شأن وتقدير أيما تقدير، من هنا عف الناس في المجتمع الجاهلي، ولم يستطع أحد من أفراده أن يجاهر بالفحشاء، اللهم إلا قلة من الشعراء منهم امرؤ القيس خاصة حين يتغزل، ورأينا من الرجال من فخروا بعفتهم وعفة زوجاتهم وصيانة حرمة جيرانهم، نرى ذلك في دواوين حاتم الطائي، وأوس بن حجر، وعنترة العبسي، بل نرى أن كثيراً من الشعراء مُدحوا بالعفة، ورُثوا بها أيضاً مثلما نجد في ديوان الخنساء، كما نجد أن سادات العرب لم تكن من سماتهم المجانة، بل حرص العرب أن يسوّدوا عليهم من هو صاحب عفة وشرف رفيع، وإذا كان الرجال كذلك في هذا المجتمع فما بالنا بالمرأة العربية؟ "لقد كانت عفة المرأة أعظم حلاها ، وأفخر خلالها، وكانت المرأة العفيفة الممنعة هي المثل الأعلى في نظر الرجال"[١].

لذا رأينا الشنفرى وهو الصعلوك الجاهلي يضع العفة على رأس صفات زوجته الخلقية ثم يبدأ في وضع دلائل تلك العفة ، وهي أحسن الأحدوثة ، فيقول :

(٥) فيا جارتي وأنت غير مليمة إذا ذكرت ولا بذات تقلت[٢]

فهو يصفها بأنها امرأة كريمة القدر، شريفة الخلق، سامية النفس، لا تتناولها الألسن لأنها لا تأتي من الأفعال ما تلام عليه من القبح

---

١) المرأة في الشعر الجاهلي ص ٣٥٤

٢) مليمة : من قولهم (ألام) إذا أتى بما يلام عليه،تقلت: تبغضت، والتبغض مقابل التحبب وقد ذكرت المفضليات ط دار المعارف أن هذا البيت لم يروه أبو عكرمة

والسوء والشر ، فهي ملتزمة فكرياً وخلقياً بالعفة والترفع عن كل ما يؤذي ويُكره من الفعل والقول، من أجل هذا كله كانت سيرتها طيبة حسنة، وسمعتها لا تشوبها شائبة إذا ذكرت في مجلس أو في مكان ما أو على الألسنة ، كما أنها" ليست ممن يقال فيها أنها تقلت، فأضاف الفعل على تقدير : ولا بذات صفة يقال لها من أجلها تقلت فلانة" [١]، وتقلت : تفعلت من القلا أي البغض[٢].

وفي مخاطبة الشاعر لزوجته بـ " يا جارتي " فيه معنى الجوار لمجاورتها إياه في الحياة الزوجية، ولم يقل لها يا زوجتي لما في معنى الجوار من الألفة والمودة والمحبة، فهي جارته وزوجته ، وحبيبته ، وهي أهل لكل تلك المعاني السامية.

ب) والدليل الثاني على عفتها: احتشامها وحياؤها وأدبها في السير:

واحتشام المرأة العربية الجاهلية كان يتمثل في حجابها بلبس الخمار أو القناع أو النقاب، أو أن تتخدر في بيتها، وقد كان الحجاب معروفاً في الجاهلية، "ولم تكن النساء كلهن سافرات، وإنما سفر بعضهن وتحجب بعضهن فغطين وجوههن ...أما دعوى فير veir أن الحجاب لم يكن معروفاً في الجاهلية فغير صحيحة تدحضها الأخبار وتبطلها الأشعار[٣]"، تلك الأشعار التي امتدحت المرأة المختمرة،

---

١) المفضليات ، ط دار المعارف وص ١٠٩

٢) شرح المفضليات للتبريزي، ص ٣٥٠

٣) انظر المرأة في الشعر الجاهلي من ص ٣٧٥ - ٣٨١

وتغزلت في موضع النقاب منها وهو وجهها، يقول الحطيئة:

طافت أمامـــة بالركبـــان آونـــةً يا حسنه من قوامٍ مّا ومُنتَقبـــا[١]

ويعجب الشنفرى بزوجته وهي متقنعة لا تكشف وجهها فيقول:

٦- لقد أعجبتني لا سقوطا قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفت[٢]

فهي عنده مثال للمرأة التي تحافظ على جمالها ومظهرها وفتنتها بستر جسدها كله بذلك القناع الذي يحول دون نظرات العيون المتطفلة ، فإذا ما مشت كان الأدب حليفها والاستقامة طريقها فهـــي لا تكثـــر التلفت لأن ذلك من فعل أهل الريبة، بل يكون العقل والاتزان ديدنها ، والقلب النظيف الطاهر هاديها ومرشدها .

وقوله : "لا سقوطا قناعها" يدل على الحياء والخفر ، فقناعهـــا لا يسقط لشدة حيائها ، والحياء وثيق الصلة بالعفة و التصون لـــذا أبـــدع الشاعر في خلع تلك الصفة "لا سقوطا قناعها" على زوجته فهي دليـــل العفة التي من علاماتها الحياء والخفر بل إن "الحياء يتناول مالا تتناوله العفة ، فهو أعم منها ، فقد تكون المرأة عفيفة ،لكنهـــا تبـــدي بعـــض محاسنها للرجال وتبتسم لهم ، وتخضع في القول ولكن المرأة الحيية لا تفعل ذلك"[٣]

---

١) الديوان ١٢١ تحقيق نعمان امين طه ، ط الأولى ١٩٥٨ ، مطبعة البابي الحلبي

٢) القناع : ما تتقنع به المرأة من ثوب، تغطي رأسها ومحاسنها به (لسان العرب مادة قنع) ، تلفت: النظر بتعمد وهو من فعل أهل الريبة

٣) المرأه في الشعر الجاهلي ص ٣٦٠

وقد ذكر الأصمعي أن المرأة كانت تلقي خمارها لحسنها ، وهي على عفة ، وأنشد قول الشمّاخ :

أطارت من الحسن الرداء المحبرا[١]

وقال أبو النجم يرجز :

من كل غراء سقوط البرقع عجزاء لم تحفظ ولم تضيع

أما زوجه الشنفرى فهي عفيفة متصونة وفي الوقت نفسه متقنعة حياء وخفرا ، وهذا غاية العفاف والطهارة التي كانت تلف بها المرأة العربية نفسها ، من هنا كان إعجاب الشنفرى بها وإعجاب الأصمعي أيضا بهذا البيت إذ أثنى عليه فقال :" وصفها بالخرادة والحياء لأن المريبة تتلفت وتسقط القناع [٢]

٢) كرمها :

اشتهر العربي بجوده وكرمه وسماحته في البذل والعطاء لدرجة أن زوجته كانت تعذله وتلومه في ذلك ، وكان دافع الكرم عند العربي هو حسن الأحدوثة وتخليد الذكر والشعور العظيم بنشوة الثناء وأريحية العطاء وتجنب اللوم ، فلا غرو أن يكون الرجال أطول باعا من النساء في هذا الباب ، وتعج دواوين الشعر العربي بكثير من الرجال الكرماء ، أما المرأة "فالأنباء عن كرمها قليلة.... ذلك بأن مالها أقل ، وهي في أكثر الأحيان لا مال لها إلا مال الزوج أو الأب ، ثم إنها ليست

---

١) شرح المفضليات لابن الانباري ج١ / ١٢٠

٢) الخرود : البكر لم تمس . أو الخفر ة الطويلة السكوت الخافضة الصوت المستترة ، جمعه خرا ئد وخرد .

مختلطة بالرجال اختلاطا يبعثها على الكرم ، ويمهد أمامها الطريق إلى الشهرة به .... وكن أحرص على المال من الرجال لأنهن أحفل بالثروة وتنميتها ... ولا يحفلن بأحاديث الكرم كما يحفلون ، ثم لأنهن أحسن تدبيرا للمال من الرجال .... وأنهن أميل إلي الجانب العملي فلا يحفلن بثناء ينقص المال ويسبب الخصاصة ... وأخيرا هن يؤثرن أنفسهن إلا على بنيهن ..." [١]

ولكن برغم هذا كله نجد للمرأة مكانة في باب الكرم – وإن كان ضيقا كما رأينا – فقد جاء في "ذيل الأمالي" إن سفّانة بنت حاتم الطائي كانت كأبيها في الجود والعطاء ، وكان أبوها يعطيها الصرمة من الإبل فتهبها الناس ، فقال لها أبوها ، يا بنية إن الغويين إذا اجتمعا في المال أتلفاه ، فإما أن أعطي وتمسكي ، وإما أن أمسك وتعطي ، فقالت : والله لا أمسك أبدا . فقال : وأنا والله ما أمسك أبدا . قالت : فلا نتجاور . فقاسمها ماله وتباينا [٢]

كما تذكر كتب الأدب كريمات غير السفانة مثل غنية بنت عفيف أم حاتم الطائي فقد كانت من أسخى النساء وأقراهن للضيف ، وكذلك كانت شذرة أم الزبرقان بن بدر ، وزوجته هنيدة بنت صعصعة [٣].

ومع ندرة الكريمات في العصر الجاهلي – كما رأينا – نجد الشنفرى يشيد بكرم صاحبته ، وأريحيتها وسماحتها مع جارتها ،

---

١) المرأة في الشعر الجاهلي ص ٣٦٢ – ٣٦٤

٢) ذيل الامالي والنوادر لأبي على القالي ط دار الكتب ، ص ٢٣

٣) انظر في ذلك ذيل الامالي ، والأغاني ج ٢ / ١٨٠

فيقول مفتخراً بتلك الخصال الطيبة فيها :

(٧) تبيت بعيد النوم تهدي غبوقها لجارتها إذا الهدية قلت [١]

يصوّر الشاعر علاقة زوجته الطيبة بجاراتها فهي ودود ، حنون ، ذات أريحية سمحة إذ تؤثرهن بزادها سيما وقت الحاجة ، وليست بدعا في ذلك فقد أشبهت زوجها الصعلوك في ذلك إذ الكرم مبدأ هام من مبادئ الصعلكة التي تربى عليها في مدرسة عروة بن الورد أبي الصعاليك فعلى يديه تعلم البذل وقت الشدة ، والإيثار على نفسه ولو كانت به خصاصة ، وله فيه المثل والقدوة حين يقول :

أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد [٢]

وفي قول الشنفرى : "بعيد النوم " إشارة إلى أريحية وسماحة تلك الزوجة في علاقتها بجارتها أو جاراتها، وشدة حرصها ومحافظتها على شعور تلك الجارة وإحساسها، فهي تهديها ذلك اللبن الذي حُلب من النوق في العشيّ (بعيد النوم) أي بالليل، كي لا يراها أحد فيقع في نفس الجارة الحرج والحياء، ثم إنها تهديه لها في وقت الحاجة والجدب حيث ينفد الزاد، وتذهب الإبل أو الألبان، ويقل الخير وبذلك يكون لتلك الهدية وقعها في النفس، وقد تخير الشاعر ألفاظه تخيراً بديعاً، يزيد من سماحة خلق زوجته وسمو علاقتها بجيرانها، فنعت العطاء"بالهدية" لكي

---

١) الغبوق : ما يشرب بالعشي . تهديه لجارتها : أي تؤثرها به لكرمها . إذا الهدية قلت : أي في الجدب حيث تنفد الازواد وتذهب الألبان ،وفي شرح التبريزي وتذهب الإبل

٢) ديوان عروة بن الورد ، دار صادر – بيروت – لبنان ١٩٦٤ و ص ٢٩ .

لا تذهب النفس إلى أنه إحسان أو صدقة أو عطف فيكون وقع ذلك المفهوم أليماً في نفس المعطى.

إن امرأة هذا شأنها لجديرة بأن:

٨- تَحُلّ بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالمذمة حلت[١]

هذه المرأة العفيفة، الحيية ، الكريمة تجعل بيتها- بكل هذه الصفات العالية- حالاً في مكان سامق بعيد عن اللوم والذم أو "اللؤم"- كما في بعض الروايات[٢]- حين تكون هناك بيوت تحل بالمذمة، وتغوص في السمعة السيئة، وفي هذا تمدح بصفة رفيعة لتلك المرأة العربية وهي طهارة ذيلها، وخلوص عرضها من الدنس، وسيرتها من الشائعات وهذه الصفة تندرج تحت صفة العفة التي خلعها عليها زوجها من قبل.

وبعض الروايات ذكرت : "تُحِلّ بمنجاة من اللوم بيتها" وبعضها: "يَحُلّ بمنجاة من اللوم بيتُها"[٣].

وكل هذه الروايات يصح الأخذ بها لأنها كلها تؤدي المعنى المراد، ففي رواية طبعة دار المعارف: "تَحُل... بيتها": أي تجعل بيتها حالاً بمنجاة من اللوم، ورواية التبريزي: تُحِل ... بيتها " يؤدي المعنى نفسه، وفي الرواية الثالثة التي أوردها التبريزي في شرحة أيضاً:

---

١) تحل بيتها : فعل متعد بنفسه، ويعدى أيضاً بالحرف، المنجاة مفعلة من النجوة، وهي الارتفاع.

٢) جاء ذلك في هامش شرح التبريزي للمفضليات.

٣) أنظر شرح المفضليات للتبريزي ص ٣٨٢ ، ٣٨٣.

"يَحُل... بيتُها " يؤدي أيضاً المعنى نفسه، وإن كان المعنى البليغ في : "تَحُل بيتها" و "تُحِل... بيتُها" إذ يكون حلول بيتها بمنجاة من اللوم بفعل صفاتها الحسنة و أفعالها الطيبة، فمن أجل ذلك تكون هي نفسها التي تسببت في ذلك الحلول للبيت بمنجاة من اللوم. وفي قوله: " يَحُل ... بيتُها " معنى جميل إذ خلع الشاعر على البيت صفة الآدميين من الحلول والنزول، وياله من حلول في الأعالي والقمم السامقة حيث الشرف والفضيلة والبعد عن الأفعال الدنيئة التي تجلب الذم.

عَوْد إلى امتداح عفتها مرة أخرى، وذلك في قوله في هذا البيت:

٩- كأن لها فى الأرض نسياً تقصُه على أمها وإن تكلمك تبلت[1]

يقول الشنفرى عن زوجته أنها لشدة حيائها تراها إذا مشت لا ترفع رأسها ،ولا تلتفت كأنها تطلب شيئا ضاع منها، وإذا كلمها أحد تنقطع فى كلامها لا تطيله ، أو إن هي تكلمت مع أحد فبإيجاز شديد من شدة حرجها وسمو أخلاقها، وهى بذلك بعيدة كل البعد عن أن توصف بالتسكع أو الثرثرة ، بل توصف بالتعقل والرزانة وتتحلى بالعفة والاستقامة وتتوج بالخفر والحياء.

وأرى أن الموضع الصحيح لذلك البيت هو أن يأتى بعد البيت السادس حيث يقول :

لقد أعجبتني لا سقوطا قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفت

---

١ النسي: الشيء المفقود المنسي،تقصه تتبعه،أمها بفتح الهمزة:قصدها الذي تريده، تبلت:تنقطع فى كلامها لا تطيله .

وبذلك يتأتى الانسجام و الوحدة بين الأبيات، الذي جاء بدوره من ذلك التآلف والترابط بين المعاني فى نفس الشاعر لتتحقق تلك الوحدة التي أشار إليها نقادنا القدامى فى القصيدة العربية خاصة فى شعر الصعاليك،يقول الجاحظ : " إن أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج ، فتعلم أنه أُفرغ إفراغا واحدا، أو سُبك سبكا واحدا "[١] ويقول ابن طباطبا العلوي في" عيار الشعر" وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته،ويقف على حسن تجاورها أو قبحه،فيلائم بينها لتنتظم له معانيها ويتصل كلامه فيها " ، وهذا كله يدل على أن الاقدمين أحسوا بأهمية هذه الوحدة ، والدليل على ذلك أنهم كرهوا أن تشيع الأمثال في القصيدة لأن ذلك يقطع اتصال الأفكار فتصبح القصيدة مفككة بل مختلة .

إن هذا البيت التاسع إذا جاء بعد البيت السادس مباشرة نري ذلك الترابط والانسجام في معنى البيتين وتوالى الأفكار ، فالشاعر في البيت السادس يعجب بعفة زوجته المتمثلة في احتشامها عندما تسير إذ هي ترتدي القناع لتستر جسدها ومفاتنها عن الناظرين ، كما يعجب أيضاً باستقامتها في مشيتها فهي لا تنظر يميناً ولا يساراً أي لا تتلفت، ثم يأتي البيت التاسع ليكمل تلك الصورة المثلى من العفة والحياء لتلك الزوجة فهي عندما لا تتلفت كأن لها في الأرض نسياً تقصه علي أمها ... ثم يأتي البيت السابع يصور كرمها، وبعده يأتي البيت الثامن ليعبر عن أن تلك الصفات السابقة الحميدة يجعل تلك الزوجة تحل بيتها بفعل

---

١ انظر البيان والتبيين للجاحظ من١-٦٨ .

خصالها بلك في مكان سامق شريف .

عود مرة أخري إلي حسن الأحدوثة آو السمعة الطيبة للمرأة العربية :

يعود الشاعر مرة أخري ليتحدث عن أميمة ذلك الحديث الطاهر العفيف الذي يصف خصالها التي تمثل خصال المرأة العربية الجاهلية آنذاك فيقول :

١٠- أميمة لا يخزى نثاها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجلت[١]

يذكرها هكذا باسمها مجرداً آية التدليل والحب والقرب، وكأنه يقول :هذه أميمة زوجتي أيها السامع صاحبة السيرة العطرة والأحدوثة الحسنة حين يجيء ذكر النسوان، ولهذا فأنا أفخر بها وأعتد بتلك الخصال الرفيعة فيها وأتباهى وأتطاول ولا أحزن أو أخزى أو يصيبني سوء، لحسن مذهبها وعفتها ، ثم يتبع ذلك بصفة أخري تسعده وتقرّ بها عينه فيقول :

١١- إذا هو أمسى آب قرة عينه مآب السعيد لم يسل أين ظلت[٢]

أي أن زوج هذه المرأة "أميمة" كما تسعده سيرتها الطيبة خارج البيت عندما تذكر النساء لأنها تكون منهن في القمة الشماء من الخلق

١- النثا:ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سئ،يقال نثا الحديث أو الخبر:حدث به وأشاعه، أما الثناء فهو إخبار عن الشيء الحسن . حليلها: زوجها ، عفت:ترفعت،جلت:عظمت وقدرت في العين

٢- آب: رجع . قرة عينه: كناية عن سعادته بها وسعادتها به .

الرفيع والقدر العظيم في العين ،كذلك فهو يسعد أيما سعادة ، ويصبح قرير العين إذا ما رجع إلي بيته مساءً بعد عناء وكد السعي على الرزق لأنه يجد منها كل ما يسره من حسن الاستقبال والترحاب، والبشاشة والوجه الحسن ،فهي امرأة تعرف حقوق زوجها عليها حق المعرفة ، وكأنها بعين الغيب قد وعت قول الرسول عليه الصلاة والسلام فى شأن الزوجة الصالحة في محاسن عشرتها الزوجية "إذا نظرت إليها سرتك " برغم أنه كان بين تلك المرأة – زوجة الشنفرى– وبين الإسلام مئات السنين ، ولكنا نقول : أنها الأنثى .. بطبيعتها وغريزتها سيما إذا كانت مثل زوجة ذلك الصعلوك ذكاءً وعلو قدر ، فهي تحب دائماً أن تكون على تلك الصورة المشرقة من النظافة، والبشاشة، ووضع الزوج موضع الاعتبار كأن تتفقد موضع عينه وأنفه فلا تقع عينه منها علي قبيح ، ولا يشم منها إلا أطيب ريح ، كما أوصت بذلك المرأة الجاهلية ابنتها عند زفافها .[١]

وإن الزوج وهو يرى ذلك الاستقبال الحافل الجميل من زوجته لا يسألها أين كانت لأنها لا تبرح بيتها فهي مخدرة، فإذا ما خرجت فهو يثق في عفتها وشرفها وحفظ غيبته، وهو علي يقين أيضاً من أنها لم تأت من الأفعال ما يسوءه ويخزيه فهي زوجة قد بلغت الغاية في الكمال الخلقي وحسن العشرة الزوجية، وهذا ما دعا رجلا كالأصمعي يقف مشدوهاً أمام هذا البيت وما سبقه من أبيات ثم ينطق قائلا :"هذه

---

١ – هذه المرأة هي زوجة عوف بن محلم الشيباني ، وانظر وصيتها بالتفصيل في أعلام النساء ، الجزء الأول للأستاذ عمر رضا كحاله ص٦٠ .

الأبيات أحسن ما قيل في خفر النساء وعفتهن"[١]أو هذه الأبيات أحسن ما قيل في خفر امرأة وعفتها،وكأن الشنفرى أبدع بهذه الأبيات في تصوير المرأة أو الزوجة المثال،ووضع حجر الأساس للحياة الزوجية الصحيحة حينما وصف زوجته أم عمرو أو "أميمة"بهذه الأوصاف النفسية العالية من عفة وكرم وطيب معشر أو حسن تبعل ولم تكن هذه الأوصاف النفسية تخفى على العربي الجاهلي بل لقد عرفها العالم القديم "فمن قديم قرر أرسطو أن مزايا المرأة الجسمية هي الفراهة والجمال ،ومزاياها النفسية هي العفة والعمل في غير ابتذال،وأن الأمم التي لا تعنى بخلق المرأة تفقد نصف السعادة"[٢] .

ثانياً:الصفات الخلقية:

انتقل الشنفرى من التمدح بخلال زوجته النفسية إلى التمدح بمزاياها الجسمية،ولكنه في مدحه الجسمي أو الجسدي لم يتدن ولم يبتذل ابتذال امرىءالقيس أو طرفة بن العبد- مثلاً- في غزلهما بالصفات الحسية أو الجسدية،فيقول في بيت واحد بكل الإبداع مع الإيجاز-لأن البلاغة الإيجاز- :

١٢- فدقت وجلت واسبكرت وأكملت

فلو جن إنسان من الحسن جنت[٣]

١-شرح المفصليات لابن الأنبا ري ،ص ٢٠٢

٢ - المرأة في الشعر الجاهلي ص ٣٥٥

٣ - إسبكرت :طالت وامتدت ،وفي شرح التبريزي :اعتدلت .

نعم ...لقد جمع كل صفات زوجته الحسية في بيت واحد حمل كل خصائص الجمال المتكامل للمرأة المثال،وكأنها قد حازت كل مقاييس الجمال الحسي بما لا يدع شبهة للمتأمل في ذلك الحسن المثالي،فلا هي بالطويلة ولا القصيرة،ولا السمينة ولا الرفيعة ولكنها جاءت تامة الخلقة "أكملت" لاشيء يعيبها كما جاءت من قبل تامة الخلق لاشيء يشينها،وجاء في شرح التبريزي:

"فدقت في محاسنها ،وجلت في مناصبها،ويجوز أن يريد:دق من أعضائها ما يستحب دقته،وفخم ما يستحب فخامته"[١]،وذلك تفسير بديع لمعنى هذا البيت،وامرأة هذا شأنها في الحسن فجدير أن يصاب رائيها بالجنون،فلوكان هناك إنسان يجن من ذلك الحسن فقد جنت هي من قبل عندما نظرت في المرآة ورأت ذلك الحسن الفتان،وقد فسر التبريزي هذا الشطر الأخير من البيت عدة تفسيرات عظيمة ذهب فيها مذهباً بعيدًا من التأويل ولكنه يحمل الطرافة والعمق،فيقول:"يجوز أن يريد:لو ستر إنسان عن العيوب صيانة له عن الابتذال لفعل بهذه،ويجوز أن يريد: لو جُن إنسان تفكراً فيما تفرد به من الجمال لكانت هذه. وقيل: بل معناه: لو أخرج من البشرية إنسان، ونسب إلى الجن لما مُنح من الحسن لكانت هذه، وهذا مبنىّ على ما تقوله العامة من حسن الغيلان، ويتحدثون به[٢]". وكلها تأويلات بديعة نأخذ بها كلها.

ومن الصفات الحسية التي خلعها الشنفرى على امرأته: طيب

---

١ - شرح المفصليات ، التبريزي،ص ٣٨٥

٢ - المرجع السابق

رائحتها ، فقال:

١٣- فبتنا كأن البيت حجّر فوقنا   بريحانة ريحت عشـــاء وطلــت[1]

أي فبت أنا وتلك الزوجة العفيفة الطاهرة الجميلة في بيت يشــع في أرجائه الطيب من أعطاف تلك الزوجة ، فكأن البيــت قــد أحــيط بريحانة كلما أصابتها الريح انتشرت نسائمها خاصة وقت العشاء لأنـــه أظهر لرائحة الرياحين، وكلما جاء عليها الصباح سقاها النــدى مــاءه العذب الصافي.

وقد أمعن الشاعر – كما رأينا – في وصف طيب نسائم زوجته لما لأثر تلك الطيوب والروائح الزكية في جاذبية المرأة، وميل الرجل إليها[2]، وقد عرف العربي القح ذلك فكثيراً ما تمدح الشعراء الجــاهليون بطيــب ريح المرأة، وعذوبة ثغرها، وحلاوة ريقها وما ذلك إلا من أثر التعطــر والنظافة، تلك النظافة التي لها أثر عظيم في شيوع الحب والوئــام بــين الزوجين، فهذا لقيط بن زرارة يصف عذوبة ريق زوجته فيقول:

كأن رضاب المسك دون لثاتِهــا   على شَبِمٍ من ماء مرنــة بــارد

وحينما يتغزل امرؤ القيس في زوجته أم جندب يقول:

ألم ترياني كلما جئــت طارقــاً   وجدت بها طيباً وإن لم تطيــب

فهو يثني على رائحتها الطيبة التي تنبع من نفسها يقصــد طيــب حديثها وعذوبته.

---

١ – حجر: أحيط، ريحت: أصابتها ريح فجاءت بنسيمها. طلت: أصابها الطل، وهو الندى.

٢– أنظر ذلك بالتفصيل في كتاب الغزل في العصر الجاهلي، د.أحمد محمد الحوفي ص١١٢.

كما نجد أنه كانت هناك من النساء من تتمنى أن يتصف زوجها بتلك الصفات الحسية من شباب غض وطيب رائحة وعطر، تقول كبرى بنات ذي الإصبع العدواني في صفات زوجها الذي تتمناه:

ألا ليت زوجي من أناس ذوي غنى حديث الشباب طيب الريح والعطر[١]

ناهيك عن وصايا الأمهات والآباء لبناتهم عند الزفاف بالتطيب وتفقد موقع عين الزوج وأنفه.

ومن آيات البيان في هذا البيت قول الشاعر : "حُجّر" وكأن الريحانة ضربت بجرانها على ذلك البيت، فأصبح محاطاً من كل جانب بتلك الريحانة، وفي ذلك من الشمول والإحاطة ما يدل على أن ذلك البيت ينتشر في أرجائة عبق الطيب، وربما يكون ذلك الطيب من طيب نفسها ، وعذوبة حديثها وحسن معشرها فيكون ذلك من صفاتها الخُلقية وليست الخِلقية، ويكون المراد: أن الشاعر وزوجته قد باتا في هناء وسعادة يرتشفان كؤوس المودة والألفة والحنان، وكأن البيت من جراء ما يذوقانه من أفاويق الحياة الزوجية الهانئة قد حُجر وأحيط بريحانة طيبة تضخ عليهما أطيب العطور.

هذه الريحانة لشدة إعجاب الشاعر بها وإعزازه لها لأنها من آيات حسن زوجته، ونظافتها، وتألق صفاتها الحسية أو النفسية خلع عليها صفات بديعة منها ما جاء في البيت السابق فهي قد: "ريحت عشاءً" أي أصابتها الرياح عشية ففتقت أكمامها عن عبق ساحر،

---

١ - الأغاني جـ ٣ ص ٩٤

واختار وقت العشاء "لأنه أبرد للريح عند مغيب الشمس"[١] و"أظهر لرائحة الرياحين"[٢] ثم إن هذه الريحانة "طُلّت" أي أصابها الطل وهو الندى، وكأن هذه الريحانة الساحرة قد تعاورت عليها عوامل الطبيعة فجعلتها زكية، نقية، صافية ، فالريح قد مرت عليها قبيل الغروب ففتقت أكمامها ثم أتى عليها الصباح فقبلها الندى ليزيدها نضارة وبهجة.

وفي البيت التالي أكمل الشاعر الصورة البديعة لتلك الريحانة العظيمة فقال:

١٤-بريحانة من بطن حلية نوّرت لها أرج ما حولها غير مسنت[٣]

ويأبى الشاعر إلا أن يجعل عوامل الطبيعة كلها تجتمع على تلك الريحانة العجيبة فتجعل منها آية في الحسن والبهاء، فقد جعل عامل المناخ أولاً في خدمتها من رياح في العشاء إلى طلّ في الصباح، ثم جعل عامل التربة ثانياً في خدمتها أيضاً ، وكأنه خبير من خبراء علم النبات يعرف في أي تربة تنمو الرياحين وفي أي ظروف تزهر وتينع، فيقول هذه الريحانة من بطن حلية "أي من بطن ذلك الوادي المسمى" حلية" هذا الوادي الذي قيل عنه في معجم ياقوت: مأسدة بناحية اليمن. وقيل: وادٍ. وقيل موضع بنواحي الطائف. وقال

---

١ - شرح المفضليات للتبريزي ص ٣٨٦

٢ - المفضليات ، ط دار المعارف، ص ١١٠

٣ - بطن حلية: في حزن ، أي أرض غليظة. الأرج: توهج الريح وانتشارها في كل جانب، غير مسنت: أي غير مجدب

الزمخشري: "حلية: وادٍ بتهامة أعلاه لهذيل وأسفله لكنانة"[١].

هذا الوادي يقع في حزن أي أرض غليظة، وهي أرض ربما تكون أجود من غيرها في تربية النبات لذا نسب إليها نبات الحزن الذي أشاد به وتمثل بجودته وطيبه شعراء العرب، فيقول الأعشى:

ما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل هطل

ويأتي الشنفرى فينسب ريحانة بيته إلى رياض الحزن أيضاً التي هي من بطن حلية، هذه الريحانة قد تفتقت أكمامها – كما مر– بفعل المناخ المتمثل في الهواء " الريح" والماء " الطل" فنورت أي خرج نوْرها أو صار لها نوار وهو الزهور، فانتشر أريجها وعبقها وعطرها، كما أنه من عوامل جودة هذه الريحانة أن الأرض التي تحيط بها مرعاء خصبة غير جديبة، وبذلك يكون الشنفرى قد أبدع في وصف ريحانة بيته الزوجي السعيد إذ جمع لها من عوامل المناخ والتربة ما جعلها ذات عطر، وأرج ، ونور، ولا يخفى علينا حس الشنفرى تجاه هذه الريحانة التي توافرت لها كل الظروف الطبيعية لتكون ما تكون في الإيناع والإزهار، فهو عربي صميم رأى مسارح الطبيعة العربية الصريحة أمام ناظريه في حله وترحاله من جبال و وهاد، وصحارى شاسعة، وطير ، وحيوان ، ونبات، فعرف معالمها، وخبر أجناسها وهو صعلوك طالما تنقل وارتحل، وغزا، وفر، وعدا، فخبر كل شيء يقع تحت بصره، لذا نراه هنا في وصف تلك الريحانة

---

١ – شرح المفضليات للتبريزي ص ٣٨٦

يبدو جد عليم بمنبتها، وعوامل نموها الصحيحة.

وأرى أن مكان هذين البيتين الثالث عشر والرابع عشر بعد البيت الحادي عشر، فيصبح الترتيب هكذا:

إذا هو أمسى آب قرة عينه مآب السعيد لم يسل أين ظلت

فبتنا كأن البيت حجر فوقنا بريحانة ريحت عشاء وطلت

بريحانة من بطن حلية نورت لها أرج ما حولها غير مسنت

لأن الزوج عندما يمسي آيباً إلى بيته فتستقبله زوجته بالبشاشة والترحاب، من الطبيعي أن يبيت هو وزوجه في ذلك البيت الجميل المحاط بالورود والرياحين لوجود ذلك الذوق النسائي الرفيع في ترتيب البيت وتنسيقه وإحاطته بالحدائق الغناء، وكأن هذه الزوجة الطيبة المعطاء كانت تتفنن في إدخال السرور على زوجها بشتى الطرق وإشاعة التفاؤل والإشراق في بيتها وفي نفسها لإرضاء زوجها، وتلك هي أسس الحياة الزوجية الحقة.

من القيم الإسلامية في تائية الشنفرى

حظيت المرأة العربية في الجاهلية بنصيب وافر من التقدير والاحترام، والحرية والرأي، والمكانة العالية، فلم تكن في الحضيض ، تسام الخسف، وترتع في المهانة والذل، وتعامل معاملة العبيد، مكبلة، ضعيفة، مهدرة الحقوق، لا .. إنها لم تكن كذلك بحال، فالعصر الجاهلي لم يكن شراً كله- كما يتصور البعض- بل كان فيه من الخير الكثير، وكان يحمل قيماً عالية وعاها التاريخ ليومنا هذا.. كان فيه : الشجاعة، والكرم، والمروءة ، والعفة، والوفاء بالوعد، وحسن الجوار، وكثير من الفضائل الإنسانية العالية التي نفتقدها الآن، ولما جاء الإسلام قوّى هذه الفضائل وأكدها، كذلك بالنسبة للمرأة أعلى مكانتها، ووطدها، وأكسبها جديداً من حقوقها أماً وبنتاً وزوجة وأختا وقريبة، في الأسرة وفي القبيلة وفي المجتمع.

ومما يؤكد مكانة المرأة في العصر الجاهلي، تلك الدواوين، والمختارات الشعرية، وكتب الأدب العربي، وكلها يزخر بأخبار المرأة العربية، ومكانتها، وما نالته من حقوق، وما كانت تتمتع به من صفات خِلقية وخُلقية، وفضائل مازالت في مسيس الحاجة لإ ماطة اللثام عنها لنتحلى بها فقد بعُدت الشقة بيننا وبينها.

وقد دأب شعراء الجاهلية على التمدح بالخصال الشريفة للمرأة سواء أكانت خصالاً نفسية أم خصالاً حسية، وكانوا يفضلون أن يمدح المرء بالصفات النفسية لأنها أبقى على الدهر، ولأنها تورث الأحدوثة

الطيبة على مر الأيام.

وقد أولع "الشنفرى" – شأنه شأن شعراء الجاهلية– بتلك الصفات النفسية أو المعنوية والروحية لزوجته ، فتحدث عن:

١. عفتها : ومظاهر تلك العفة من احتشام يتمثل في ارتداء القناع، وسير مستقيم، وسمعة طيبة، إلى حياء يتمثل في عدم الثرثرة أي حفظ اللسان الذي هو دليل على كياستها، وفطنتها فهي لا تتكلم إلا بما ينفع، إلى حفظ للزوج في غيبته، وعلى الجملة فهي تسعى [illegible] ما يدخل السعادة والسرور [illegible]

[illegible] ومظاهره: العطف على جيرانها، والإيثار وقت الجدب والحاجة وستر العطاء عن الأعين كي لا يشعر آخذه بالحياء أو الحرج، كما أولع الشنفرى بصفاتها الحسية والجسدية ، ولكنه لم ينفق في ذلك الأبيات الكثيرة، التي تفصل وتوضح ذلك الجمال الجسدي، ولكنه أوجز إيجازاً بليغاً، فعبّر أيما تعبير في بيت واحد عن تلك الصفات المحسوسة من دقة خصر"فدقت" إلى عظم ردف "فجلت" إلى اعتدال قامة "فاسبكرت" ثم لم يشأ أن يطيل أكثر من ذلك لئلا تلتهمها العيون، وهو العربي الغيور على عرضه وشرفه، فقال جملة واحدة مستكملا لها كل صفات الأنوثة " فأكملت" ، وكأنها قد كملت خلقة واستوت مثالاً فريداً له ظل واسع على الأرض.

كما ذكر من صفاتها الحسية أيضاً: طيب رائحتها ، ليدل بذلك على استكمالها لصفات الأنوثة، ويمكن أن يكون ذلك من صفاتها

النفسية والروحية فيدل بذلك على طيب معشرها، وحلو حديثها لتستوفي بذلك صفات المرأة المثالية في حسن معاملتها لزوجها.

هذه الفضائل النفسية والروحية نجدها التقت مع تعاليم الإسلام ومبادئه، فقوّاها، وأضفى عليها من سماحته الشيء الكثير.

فبالنسبة لحريتها وقوة شخصيتها نجد الإسلام عضدها في ذلك، فأعطى لها حريتها في اختيار زوجها، وكفل لها معاملة حسنة، حتى لقد تاهت بعض المسلمات بمكانتهن، فاشترطن على أزواجهن، وركبن الشطط في معاملتهم، من ذلك ما جاء في الأغاني "أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان، قد غضبت عليه وهو خليفة، فاحتجبت عنه حتى شق ذلك عليه ، فأرسل من يحتال في إرضائها"[١].

وبالنسبة لعفة المرأة ، فقد أحاطها الإسلام بسياج حصين من العفة والحياء، فأمر بضرب الخمر على الجيوب، والاستقرار في البيوت، ولنا في آي الذكر الحكيم، والسنة النبوية المطهرة القدوة الحسنة، كما حض الإسلام المرأة على العفاف فشدد عقاب الزاني والزانية، ونمّى حياء المرأة ورغبها فيه إذ جعله شعبة من شعب الإيمان وربأ بها عن كل ما يمس شرفها وسمعتها، فحرّم فجور الإماء، وكسب البغي.

وعن الكرم: فقد رغبها فيه إذ جعله صدقة وقربى إلى الله، بل واجبا اجتماعيا على الأغنياء للفقراء وليس لمجرد حسن الأحدوثة

---

١ - الأغاني جـ ٢ ص ١٣٥

والتباهي، لذلك نجد الصعاليك خاصة كانوا يستمسكون بذلك المبدأ من العطف على الفقراء والحدب عليهم ، وأن وسيلتهم في ذلك مشروعة إذ كانوا يغيرون على الأغنياء ليعطوا الفقراء فكان حريا أن تكون زوجة الشنفرى مثله في الكرم والعطاء، فتؤثر جاراتها بالهدية من الألبان وقت الجدب والشدة.

وإذا كانت المرأة العربية قد أحسنت الجوار، وأهدت ، وأعطت السائل والمعتر، فإن الإسلام قد رسخ تلك المفاهيم السامية، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا جلاها ، فحين يقول الرسول صلى الله عليه وسلم عن احد السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل الا ظله : (ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه) ، [illegible] الشنفرى كانت تهدى جاراتها وتؤثرهن بعطاياها "بعيد النوم والناس نيام كي لا تراها [illegible] السامي الرفيع، لكي لا تتأذى الجارة ولا يدخلها الحرج إذا رأى الناس العطية أو الهدية [illegible] تأخذها.

وقد اشتهرت في باب الكرم نساء مسلمات كثيرات منهن: زينب بنت جحش، وسكينة بنت الحسين...

أما صفاتها الحسية: من جمال مشهود، ورائحة طيبة، وعذوبة حديث، وطيب معشر، فقد حض الإسلام على كل هذه الصفات، حين جعل النبي صلى الله عليه وسلم من الأسباب التي تنكح المرأة لأجلها الجمال:"تنكح المرأة لأربع: لمالها ، ولحسبها وجمالها ولدينها ..." كما

آثر ﷺ أن يتزوج الرجل المرأة الودود : "تزوجوا الـودود الولـود..." فالودود هي حسنة المعشر، حسنة المظهر والمخبر، فقد حذر ﷺ مـن خضراء الدّمن، وهي المرأة الحسناء في المنبت السوء.

نستخلص من ذلك كله أن المرأة الجاهلية لم تكن في الحضيض، ولم تكن محرومة من حقوقها كإنسان له عقل وفكر وكرامـة وكيـان، كما أنها لم تكن خلواً من الأخلاق الكريمة، ولم تكن سيئة المعشـر أو المظهر دميمة، فأشعار العرب كثيراً ما تشهد بغير ذلك، كما أنه لـيس من المعقول أو الطبيعي أن تكون المرأة الجاهلية في تدن وتسـفل وذل وهوان وضعة، فلما جاء الإسلام رفعها مرة واحدة، وانتشلها من كـل تلك الأدواء أو الأمراض الاجتماعية الخطيرة جملة واحدة فاسـتجابت للوهلة الأولى بين عشية وضحاها، وأصبحت على تلـك الحـال مـن الرفعة وعلو المنزلة والشرف هكذا، ولكن المعقول والملائـم لطبيعـة البشر وغريزة الإنسان أن المرأة الجاهلية كانت في مكـان مرمـوق تتمتع بحريتها، وتحرص على عفتها وكرامتهـا، وأنوثتهـا وجمالهـا لكونها أنثى تدرك بحسها الواعي وتملك بغريزتها النقية مفاتيح الحيـاة الزوجية الحقة، كما كانت تتمتع بأريحية سمحة مثل زوجها أو ذويها ، فأعطت ، وأهدت ، وأحسنت الجوار، فصارت محط الأنظار، ومهوى الأفئدة، ونظمت الأشعار، فلما جاء الإسلام وهي تملك هذه الفضـائل، قوّاها عندها، ونمّاها، ورسّخها ، وأضفى عليها من سـماحته ويُسـره وأخلاقياته الشيء الكثير، وأبطل ما وجده فيها من رذائل، ومحا وحرّم ما كان لديها من شرور وأدواء.

وبعد... فها هي بعض التأملات المتواضعة في تائية الشنفرى:

١. استحوذت المرأة على نصيب وافر من التائية قارب نصف القصيدة (من البيت الأول حتى البيت الرابع عشر) استغرقه الشاعر في ذلك الحديث العذب الرقيق، حديث الحب، والعفة ، والطهارة، والجمال والكمال لزوجة محتشمة، مصونة العرض، جوادة، طيبة المعشر، رائعة الحسن.

٢. تبدت المرأة في شعر الشنفرى مثالاً بديعاً، وكياناً فريداً له ظل واسع على الأرض، ومثلت محوراً أصيلاً حين تحدث عن أخلاقها المثالية الفريدة في تلك الأبيات التي أطلقتُ عليها "حديث الحب".

٣. تحمل هذه الأبيات سمواً وجدانياً عالياً من الشاعر حين تغنى بجمال زوجه أو محبوبته الروحي والأدبي والمعنوي، وأرجع ذلك إلى ما وجده شاعرنا من تمنع فتاته ورفعة أخلاقها حين لطمته تلك اللطمة القاسية على خده لما حاول أن يطبع على خدها قبلة حارة في نهم وقرم (في رواية الأغاني) مما جعل أبيات الشنفرى تحمل الصدق، والواقعية الجمالية، والعمق الفكري الصائب، كما تغنى بجمالها الحسي ببيان بلغ من الدقة والروعة مبلغاً عظيماً، من هنا جاء إعجاب رواة وشراح ودارسي هذه التائية بما حكته من خفر النساء وحشمتهن مثل: الأصمعي، والمفضل الضبي الذي أعجب بتلك الصفات الحميدة التي خلعها الشنفرى على امرأته.

٤. نستطيع أن نعد هذه القصيدة من الشعر الوجداني لأنها

مرتبطة ارتباطا وثيقاً بقائلها الذي أراد بها غاية مقصودة أو قل غايتين عظيمتين، الأولى تتمثل في المباهاة بشمائل زوجته المثالية، والثانية: الافتخار والتأكيد على شجاعته التي فاقت شجاعة الإنس والجن على السواء كما حدثتنا بذلك سيرة حياته، وهناك ارتباط وثيق بين الغايتين وهو ما يمثل الوحدة الشعورية والوحدة العضوية أيضاً بين أجزاء القصيدة على عكس ما ذهب إليه بعض النقاد الذين رضعوا ثقافات الغرب[١]، ولست بصدد مناقشة ذلك الأمر الآن، ولكن أوضح آية الاتحاد بين جزءى القصيدة فأقول: إن الشاعر بعدما فرغ من الحديث الطيب الكريم عن زوجه المصون التي فارقته فجأة دون أن تعلمه فطار قلبه ووجدانه عليها ندماً ولوعة وأسى أراد أن يسرى عن نفسه لوعة الفراق والحرمان، ويشغل وقته بتلك الغزوة مع رفاقه، فكان له ما أراد.

وقصارى القول في تائية الشنفرى، أنه إذا كان عمر بن الخطاب قد حث على تعلم لامية الشنفرى،فحري بنا أن نحث أنفسنا وفتياتنا على تعلم تائيته ففيها من الخلق العربي الإسلامي القويم الشيء الكثير.

❁❁❁❁❁❁

❁❁❁❁

❁

---

١ - انظر النقد الأدبي الحديث – د. محمد غنيمي هلال، ص ٤٠٢ ــ ٤٠٥

المصادر والمراجع

١- أسرار الحماسة – سيد على المرصفي – الجزء الأول – مطبعة أبي الهول – القاهرة ١٣٣٠هـ – ١٩١٢م .

٢- أعلام النساء ، الجزء الأول ، الأستاذ عمر رضا كحالة ، المطبعة الهاشمية ، دمشق .

٣- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني – ط دار الكتب المصرية .

٤- الأمالى ، أبو على القالي ، مطبعة دار الكتب ١٣٤٤هـ – ١٩٢٦م.

٥- البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة و النشر ١٣٦٨هـ – ١٩٤٩م .

٦- تاريخ الأدب العربي – كارل بروكلمان – جـ١ – ط دار المعارف.

٧- الحماسة ، البحتري ، المطبعة الرحمانية – مصر ١٩٢٩م .

٨- خزانة الأدب – البغدادي – تحقيق عبد السلام هارون – طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٩- ديوان الحماسة لأبى تمام – شرح التبريزى جـ١ ،٢ – دار القلم – بيروت .

١٠- ديوان عروة بن الورد . شرح ابن السكيت ، دار صارد – بيروت .

١١- ذيل الأمالى و النوادر ، أبو على القالي ، طبعة دار الكتب .

١٢- شرح المفضليات – ابن الأنبارى – ط بيروت – ١٩٢٠م .

١٣- شرح المفضليات ، التبريزى ، القسم الأول ، تحقيق على محمد البجاوى ، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

١٤- الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلي – د. يوسف خليف – ط٤ – دار المعارف – سنة ١٩٨٦م .

١٥- الشعروالشعراء – ابن قتيبة – تحقيق احمد شاكر – ط٣ – سنة ١٩٧٧م .

١٦- الشنفرى شاعر الصحراء الأبي - د. محمد حسن أبو ناجى - ط٢ - بيروت - سنة ١٩٨٣م .
١٧- الطرائف الأدبية - عبد العزيز الميمنى - ط دار الكتب العلمية - بيروت.
١٨- الغيث المنسجم فى شرح لامية العجم - صلاح الدين الصفدى - دار الكتب العلمية بيروت - سنة ١٩٧٥م .
١٩- الغزل فى العصر الجاهلي ، د. احمد محمد الحوفى - مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م .
٢٠- لسان العرب - ابن منظور .
٢١- مجمع الأمثال ، الميداني ، المطبعة البهية المصرية - القاهرة ١٣٤٢هـ .
٢٢- المرأة فى الشعر الجاهلي - د. احمد محمد الحوفى - دار نهضة مصر - الفجالة - القاهرة ، الطبعة الثالثة - ١٩٨٠م .
٢٣- مفتاح الإعراب ، محمد بن على عبد الرحمن الانصارى ، تحقيق وتصحيح سعد كريم الدر عمى ، دار ابن خلدون - الإسكندرية .
٢٤- المفضليات - المفضل الضبي - تحقيق احمد شاكر وعبد السلام هارون - ط٦ - دار المعارف - سنة١٩٧٩م .
٢٥- من القيم الإنسانية عند صعاليك الجاهلية - د. رزق محمد سيد احمد - سنة١٩٩١م .
٢٦- النقد الادبى الحديث - د. محمد غنيمى هلال - ط دار الثقافة - بيروت - سنة١٩٧٣م .